روح الطموح في المتنبي (١)

للأستاذ احمد رضا

منشأ الطموح

طرد الهم أو دفع الألم هو كما قال ابن حزم « مذهب اتفقت الأمم كلها عليه فلا يعتمدون بسعيهم أمراً سواه » لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيها من طريق الشعور بالحاجة او بما يؤثر في ميولها من وراثة فتحاول طرد الهم بما يحول دونها . فالناشيء في سلف عزيز وخلف أعزة تنزع نفسه إلى العز ، والنابت في منبت شهواني أو سلف أليف الشهوات يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه ألم حرمانها . وما طلب المال طالبه إلا لطرد هم الفقر ، ولا رغب في الحياة راغبها إلا لدفع هم الموت ، ولا ابتغى الصيت مبتغيه إلا لطرد هم الخمول ، ولا طلب المعالي من الأمور إلا من يكره أن يستعلي عليه عال .

الانسان روح وأشد ما تكره الروح أن يستعلي عليها مستعل أو يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذي للقوة القاهرة إذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة هماً مملوءة كرباً ، فاذا طال عليها الامد ، وهي خاضعة ، ألفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالفة يخف ألمها وينفرج كربها .

عزة النفس العربية

العرب أمة نشأت على عزة النفس والاباء فرأت انها أعز الأمم جارا وأمنهم ذمارا وأشرفهم محتدا وأذكاهم عنصرا ، ثم تجاوزت الحد فرأت أن كل من عدا العرب أعاجم لا يدانون العرب منزلة ولا يوازونهم كفاءة .

(١) أقام المجمع العلمي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الاستاذ احمد رضا .

فليس عجيباً والحال هذه أن يأنف النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على قرى الطف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها اليه فيقتله كسرى تحت أرجل الفيلة انتقاماً من أنفته . ولا أن ينتقم له العرب بوقعة ذي قار لأنه ذهب شهيد الكبرياء العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي .

وليس غريباً أن تعتصم ليلى بنت لكيز بعفتها ولا ترضى أن تكون في نساء كسرى لأنها عربية وهو أعجمي . وهي بنت الصحراء أو ربيبة البوادي واليفة المضارب ، وهو صاحب الدور المشيدة والصروح الممردة والملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا كله ليس بكفء لها لانها عربية وهو أعجمي .

هذه هي كبرياء العرب وطموح العرب ، فلا عجب إذاً أن نرى عربياً حقاً كأبي الطيب ارتفع بذكائه وعلا أقرانه ببيان ساحر وقلب جريء وعزم ثاقب وعلم جم تهب عليه ريح الطموح وتطغى فيه روح التعاظم وهو العربي منبتاً ونسباً وأدباً .

المتنبي عربي صحيح النسب

ضربت بعرق المتنبي دوحة يمان ، فهو من حيث أبوه جعفي من سعد العشيرة من مذحج ، وهو من حيث أمه همداني ، وهمدان واسطة عقد العرب اليمانيين مجداً وشجاعة وسيد العرب بعد النبي المختار يقول فيهم :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنوا فتحة الباب
كالهندواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجناب

يقول أبو الحسن ابن ام شيبان : إن أبا الطيب كان جعفياً صحيح النسب ، ويقول أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي ، ان والد المتنبي كان يقول انه من جعفي ، ثم قال وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا ، وابو الطيب يقول على قلة اعتداده بمجد الآباء :

وبجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

ويقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

فيدعي مثل هذه الكبيرة ويفخر هذا الفخر ويبالغ في أنفة قومه هذه المبالغة فلا بد إذن لهذه الدعوى من أصل في شرف آبائه . أما أن لا يكون لدعواه هذه أساس تبنى عليه هذه المبالغه فاني أراه غير مقبول في العادة ، والا فلمَ تركها له حساده والناعون عليه وما أكثرهم حوله وما أحصاهم لكل دقيقة وجليلة عليه ! وإذا لم يكن له أصل من شرف آبائه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكتون عنه من هذه الناحية من فخره بعد أن طبلوا وزمروا في تنقصهم له ، وكل ما قالوه في نسبه ان اباه ويلقب بعيدان كان خامل الذكر فقيراً ومهما اشتد الفقر لا يكون مزريا بالأحساب والأنساب ، وخمول الذكر مهما استحكم لا يكون ميزاناً لمجد الآباء وشرف العنصر ، وأما ما جاء به بعض المخرفين عنه من أنه انما افتخر بنفسه دون آبائه فلكي يسرّ وهناً في نسبه . فهو دليل لا يصح الركون اليه واذا كان المتنبي يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

فانها سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيل العامري وهو من علت مقامه في العرب حسباً ونسباً يقول :

وما سودتني عامرٌ عن كلالة أبى الله أن أسمو بأمي أو أبي

إذا كانت نفس عصام سودت عصاما فليس معناه أن آباءه لم يكونوا ذوي سؤدد وسيادة بل هو على حد قول الفضل اللهبي الهاشمي الذي يقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمتْ يوماً على الأحساب نتكلْ

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

على أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يتوهم من قوله بل شرفوا بي بقوله بعده :

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

وليس عجباً من ذي كبرياء وطموح مفرط كالمتنبي أن يقصد المعنى الذي أراده الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرف كما علت برسول الله عدنانُ

إن المتنبي الكبير النفس المتجاوز حد التعاظم بمثل قوله :

فدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

والذي يقول:

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

يأبى أن يستند في فخره إلى مجد عظامي ، وإن كان شامخاً باذخاً ، ويريد أن يحقق بنفسه القاعدة المشهورة : «المرء بجده لا بجدّه» على أن خمول ذكر والده وعدم مساعدة الزمان له على أن ينال مقاماً يعرف به لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يمتع نفسه بولده بما حرمت نفسه منه من علم وثقافة ، فسافر به إلى الشام حيث الهواء العذي والماء الروي ، والأدب ناشر أعلامه ، ومجالسه حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث منبت الطائيين اللذين انتهت اليهما زعامة الشعراء ، حيث موطن المتابي والنمري والسلمي وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء ، وهم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين السيف والقلم » ، حيث ملتقى أئمة اللغة ونحاريرها وفحول العربية وأساطينها أمثال ابن خالويه والفارسي .

ويقول الثعالبي : « سافر به أبوه الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ومخايله تواطق بالحسنى ، ضوامن النجح فيه حتى ترعرع وشعر وبرع » .

المتنبي بعد موت أبيه

مازال هم الطموح يعتلج في صدر أبي الطيب ويتقد وهو منصرف إلى مغالبة العوائق ، فعكف على التحصيل ، وكان كثيراً ما يغشى الوراقين يتزيد من دفاترهم علماً ، ويجهد نفسه في المطالعة واستظهار ما يروقه . وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين ، وكان هذا في أول صباه من أنه حفظ كتاباً للأصمعي يدخل في ثلاثين ورقة بنظره فيه نظرة واحدة ، فروى أيام العرب وتعمق في درس اللغة فقنص شواردها وتأنس أوابدها حتى بلغ من ذلك الغاية ، وحسبك شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فعلى وأجابه أبو الطيب بلا توقف انها حجلى وظربى . يقول الفارسي انه قضى ثلاث ليال يراجع كتب اللغة فلم يجد لها ثالثاً .

دعوته الى نفسه وجرأتها

أبو الطيب عربي خالص العروبة ، تفتحت عيناه على عز العرب وما عم فيه من دولة ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها إلى امتلاك زمام الامر والنهي ، هذا بهمته وجهوده وذاك بعصبيته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته فليس غريباً أن تزداد روح الطموح فيه نشاطاً وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر همة وأعز نفساً ، فكيف لا يدفع هم استعلاءهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه .

وكأنه رأى أن أعلى مقام للسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره لحاجتها إلى بيعة شاملة أو ولاية عهد مؤيدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة قامت دعائمها ، والنبوة تبتدىء بالدعاية الفردية ثم تنتشر فيكثر حولها الأنصار فتشتد فيعلو أمرها . رأى ذلك وعنده من قوة الجنان وسحر البيان وفصاحة اللسان ما يخلب به ألباب الاعراب وكانت قد فشت في ذلك العصر بدع المتنبئين ودعوات الحلول وعليها قتل ابن الشلمغاني والحلاج وغيرهم وفشت دعوى القرامطة المبنية على مثل هذا الاساس .

فتخيل أن الزمان يؤاتيه حيث كانت الممالك فوضى بعد أن ضعفت الخلافة في بغداد وأصبح كل أمير مستقلاً بعمله ، ففي البصرة ابن رائق وفي خوزستان البريدي ، وفي فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري وأصفهان والجبل ركن الدولة بن بويه وابن زيار يتنازعان عليها ، وفي الموصل وديار بكر وربيعة ومضر بنو حمدان ، وفي مصر والشام الاخشيديون ، وفي المغرب وإفريقية الفاطميون ، وفي الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي ، وفي بلاد البحرين واليمامة القرامطة .

تخيّل هذا وهو من طموحه في غرور متجاوز الحد ، فحاول دعوى النبوة أو انه أظهرها على اختلاف أمهات الروايات في ذلك ، وقد رأيت أن ألم بها لاستجلي ما يتراءى لي من تحقيق فيها .

قال علي بن المحسن التنوخي عن أبيه عن أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي : « كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهراً طويلا وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأطلق[1] وهذه الرواية تصلح بادعائه العلوية ، وأن حبسه كان طويلا ، لاقى فيه العذاب وأشرف على القتل ولكنها لا تقول بأنه اجتمع

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤

عليه أحد وبنو كلب بأرض نخلة وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة أميال منها ، ولعلها نحلة بالحاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك ويدل على إقامته في هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقـــام المسيح بين اليهود

قال العكبري في شرح هذا البيت : دار نخلة على ثلاثة أميال من بعلبك وهي قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن أبيه عن أبي علي بن أبي حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون — وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك — أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج اليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وأنفره وشرّد من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرها من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلا فاعتل وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن منزل[1] .

وهذه الرواية تقول إنها سمعت بحلب وجاء بها بلفظ (ويحكون) وانها حكيت وأبو الطيب في حلب إذ ذاك أي في زمن سيف الدولة وبعد نيف وعشرين عاماً من خروجه وهي لا تتعرض لدعوى العلوية ، بل تقول إنه أظهر النبوة وتبعه خلق من قبائل شتى اجتمعوا عليه وان الذي خرج اليه وحبسه واستتابه هو لؤلؤ الأخشيدي .

وقال الثعالبي « وقد بلغ من كبر نفسه وبعد همته ، أن دعا إلى بيعته قوماً من رائشي نبله على الحداثة من سنه والفضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده[2] »

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤ .
(٢) يتيمة الدهر م ١ ص ٧٩ .

ويحكى أنه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه ، وحكى أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول إنما لقبت بالمتنبي لقولي :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود[1]

وروايتا الثعالبي هاتان تدل اولاهما على أنه دعا إلى بيعته ولم تصرح بان البيعة كانت للنبوة أو الولاية . وعلى أنه قبل أن تتم دعوته حبسه الوالي وانه كان هم بالخروج أي أنه همّ ولم يفعل ، فهو اذاً على هـــذا لم يخرج فعلا .

وجاء الثعالبي في الثانية بلفظ (ويحكى) مما يدل على توهين أمرها وزاد في المتوهمين تعقيبه لها بما رواه ابن جني عن المتنبي نفسه في سبب تلقيبه بالمتنبي وفوق ما رواه ابن جني تنصّل أبي الطيب من دعوى النبوّ والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن أبيه أن المتنبي كان إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك بحلب نذكر له هذا القرآن وأمثاله مما يحكى عنه فينكره ويجحده ويقول أنا لست أرضى أن أدعى بهذا (أي بالمتنبي) وإنما يدعوني به من يريد الغض مني .

فالمتفق عليه إذاً من هذه الأحاديث أنه حاول الخروج على السلطان وانه حبس في ذلك حبساً طويلا حتى كاد يتلف وانه استتيب واطلق ، وهذه الروايات إنما هي عن أقرب المؤرخين اليه عصراً فالخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ والثعالبي ولد في حياة المتنبي سنة ٣٥٠ والظاهر ان اعتماد من تأخر عنهما في حديث المتنبي كان عليهما ، ويظهر من التدقيق في نص هذه الروايات القول بأنه همّ بالخروج وانه خرج في طلب إمارة هو أقرب

(١) اليتيمة م ١ ص ٨٠

الى الصواب من أنه تنبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى ومن أنه أظهر قرآناً لأن الرواية التي تقول هذا لم تخلُ من كلمات تحفظ مثل أسنادها الى الحكاية ومثل ان الرواية كانت بحلب وأبو الطيب إذ ذاك بها بخلاف الرواية الأولى التي أرسلت كأنها حقيقة ، وأنت تعلم أن أبا الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغيث من كيد حساده وقوة بأسهم وشدتهم في النض منه والحط من شأنه فيقول له :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم ... فأنت الذي صيرتهم لي حسّدا

أولئك الذين أخرجوه من حلب مغاضباً سيف الدولة لأنه لم ينتصر له منهم على شدة حبه له وحنينه اليه بعد فراقه ، ويحكى عن بعضهم أنه مات حسداً لأبي الطيب وحنقاً منه .

وفي الصبح المنبي رواية أخرى غير ما تقدم وهي أن المتنبي خرج بأرض سلمية من أعمال حمص في بني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وانه أمر النجار أن يجعل في رجليه قرمتين من خشب الصفصاف وان المتنبي قال في ذلك :

زعم المقيم بكوتكين بانه ... من آل هاشم بن عبد منافِ
مذ صرت في أبياتهم متنبأً ... صارت قيودهم من الصفصافِ

وانه كتب إلى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :

ان يكن قبل أن رأيتك أخطأ ... ت فاني على يديك أتوبُ
عائب عابني لديك ومنه ... خلقت في ذوي العيوب العيوب

وظاهر هذه الرواية أن الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو ابن علي الهاشمي ، وان خروجه كان بأرض سلميه في بني عدي .

دفاعه عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمي به المتنبي ، فلنرجع في التحقيق إلى ما يقوله هو في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيدته التي أرسلها

من سجنه إلى الوالي (لائحته الدفاعية) التي يستحق عليها اجازة كلية (ايسانس) فهو يقول :

وقيل عدوت على العالمين ... بين ولادي وبين القعود
فما لك تقبل زور الكلا ... م وقدرُ الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعنّ من الكاشحين ... ولا تعبأن بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أرد ... تُ ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد
تعجل فيّ وجوب الحدود ... وحدي قبيل وجوب السجود
وفي جودِ كفيك ما جدت لي ... بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

ان أبا الطيب قلب الدفاع في أبياته هذه على وجوه :

الأول : أن يقابل الدعوى بإنكارها من أساسها بقوله فما لك تقبل زور الكلام .

الثاني : أن يردّ شهادة الشهود بجرحه لهم لأنهم سفلة سقاط ذوو محك كمحك اليهود بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . وقوله : ولا تسمعن من الكاشحين .

الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فان شهادتهم جاءت على أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يجبان على معتقد الجرم ما لم يفعله فاذا هو فعله استحق العقاب على الفعل ، وأنا لم أفعل فلا عقـاب علي . وذلك في قوله : وكن فارقاً بين دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فانما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم أبلغ الحلم ولم تجب عليّ الصلاة ، فكيف يحكم عليّ بالعقاب والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم أكلف فلا عقاب عليّ . وفي ذلك يقول تعجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع فاني أطلب العفو والصفح وهذا آخر ما يطلبه المحكوم عليه وهو قوله :

وفي جود كفيك ما جدت لي .

ويظهر من هذا أن التهمة وجهت اليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع معها التكليف ، أو كان حواليها على فرض المبالغة ، وفي تفننه في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعي عليه به من التنبؤ لم يكن على حد التواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى لكانت لأجلها متواترة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الانكار مكابرة ومماحكة وهراء من القول فكيف يتسنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها بل كيف يتسنى لمثل أبي العلاء المعري وهو أقرب الناس إلى زمانه وأكثرهم معرفة به واعجاباً أن يشكك فيها !

من الذي سجنه

في الكلام في اسم الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سمعت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيدي أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

فمن كالأمير ابن بنت الأمير ... أم من كآبائه والجدود
رمى حلبا بنواحي الخيول ... وسمرٍ يُرقن دماً في الصعيد
فولى بأشياعه الخرشني ... كشاءٍ أحس بزأر الأسود

قالوا لي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدود يفتخر بهم ، وليس للؤلؤ مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب إلى التحقيق . ويدل قوله : رمى حلباً بنواحي الخيول انه قاد الجيوش إلى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو اذاً قد

ساقها لنصرتها لا لحربها وذلك فيما وراء حلب لقتال الروم بدليل قوله فولى بأشياعه الخرشني ، وليس الخرشني إلا الدمستق صاحب عسكر الروم شرقي القسطنطينية وكانت له حرب مع هذه البلاد في سنة ٣١٩ وعمر أبو الطيب يومئذ ست عشرة سنة ، وأرجح أن متولي كبر الكراهية في هذه الحرب بنو حمدان أمراء الموصل لأن حفظ ثغور الروم كان مفوضاً اليهم من خليفة بغداد ، ولم يكن الاخشيديون يوماً من الأيام مناصرين للحمدانيين .

بعد السجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتنبي) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزلته وكان والي انطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدّم المتنبي اليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب » وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ وعرفه سيف الدولة منذ قدمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ فتكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع عن الفقر بطرق أبواب الأمراء والولاة ، فلا يجد عندهم إلا خميس العيش ولم ترفعه صلاتهم الى أن يستبدل بنعليه مركوباً ولا برجليه راحلة فيقول يومئذ :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا ... بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ومشفرها ... زمامها والشسوع مقودها

ويقول :

ومهمهٍ جُبته على قدمي ... تعجز عنه العرامس الذُلُلُ
في سعة الخافقين مضطرب ... وفي بلاد عن أختها بدل

ويقول في قصيدته الدينارية :

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستمطراً مطرت علي مصائبا
وحُبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا

فكان من جملة مصائبه أن يفرغ إلى علي بن منصور الحاجب من جور زمانه ويمدحه بمثل هذه القصيدة الغراء فيجيزه عليها ديناراً واحداً وكأنه أراد أن يمن عليه بهذا الدينار ليشتري به بدلاً من حذائه الذي قطعه في المشي اليه .

ويقول المتنبي في قلة الجدوى :

لم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى اناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم

والظاهر أن أول من اتصل به من الرؤساء هو أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي فان معاذاً يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذار له وله وفرة جميلة . وارجح أن اتصاله بمعاذ إذا صح أنه كان سنة ٣٢٠ كان بعد خروجه من السجن ، لأنه لما كان في السجن بدعوى الخروج (ولم يعلم أنه سجن قبلها أو بعدها) كان في الخامسة عشرة أو حواليها . وأما ما جاء في حديث معاذ من أنه مخرق له وأغواه بضرب من السحر تعلمه من اليمن ، وأن معاذ رجع عن الغواية به لما علم أن ما جرى منه كان قد تعلمه من اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون ؟ فأجابه المتنبي نعم أما سمعت قولي :

أمنتي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

فهو ظاهر الوضع لأن البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها المتنبي علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبي دخل اليمن وما السكون وحضرموت وكندة في البيت إلا أسماء محال بالكوفة قال ذلك شراح ديوانه .

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللاذقية ومنبج وطرابلس وطبريا والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظمأه الى المعالي ولا يبلغ آماله من المال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

إذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
ها خلتان : ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرى

وما زالت هذه حاله حتى نعم بكرم أبي العشائر ، فاستيقظت مع الرخاء ونعمة العيش روح كبريائه ، ولما أراده سيف الدولة لصحبته لم يجبه أبو الطيب إلا على شرط أن لا ينشده قائماً ، وأن لا يقبل الأرض بين يديه كما كانت سنة الشعراء مع الملوك والأمراء يومئذ وقبل سيف الدولة شرطه حرصاً على الاستئثار بفرائده وقلائده الخالدة على الدهر ، وهذه الميزة لم يعطها سيف الدولة لأحد ممن كان في حضرته من الشعراء غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً ، فقال لأبي الطيب أتقول أشجاه وانما هو شجاه فقال أبو الطيب له (اسكت ليس هذا من علمك انما هو اسم لا فعل)

وابن خالويه من أئمة العربية يجيبه أبو الطيب بمثل هذه الغلطة لأنه انتصر عليه وهو من الاعتداد بنفسه وبعلمه بالمحل الذي علمت .

ولعل هذا التعاظم من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً للتعادي بينهما الذي انتهى أمره بأن ضربه ابن خالويه بمفتاح من حديد على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدماه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالأسود الدارش أفراساً نعالها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :

في الشرق والغرب أقوام نجبهم فيلفاهم وكونا أبلغ الرسل
وخبراهم بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ولكن أبا الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان يقيده في ذرى سيف الدولة كما زعم .

شهرته الطائرة في شعره وأثرها في طموحه وكبريائه .

يقول صاحب المثل السائر : « وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين وكثر الناسخ لشعره . والغائص في بحره والمقتبس من جمانه ودره ، وإنما شهرة أبي الطيب إنما تمت وعمت منذ اتصل بسيف الدولة فأكثر هـذا حساده بكثرة انعامه عليه وبما رفع من منزلة لديه .

نشطت روح الطموح في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار مسير الشمس وتناقل شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الأدب ، واستعان بألفاظه ومعانيه جمهور الكتاب حتى من كان شديد الكره له عظيم النقمة عليه كالصاحب بن عباد .

ويقول ابن العميد وقد ماتت أخته : « انه ليغيظني أمر هـذا المتنبي واجتهادي في أن أخمد ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منهم إلا وقد صدر كتابه بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ، وهذان البيتـان من قصيدة أنفذها أبو الطيب إلى سيف الدولة في رثاء أخته سنة ٣٥٢ وكان اتصال أبي الطيب بابن العميد سنة ٣٥٤ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ، فلا يكون إذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل البلاد حتى استفتح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الأقطار المختلفة ، إلا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصعوبة الأسفار .

وجاء في الصبح المنبي عن بعض أئمة الأدب أن رجلا من مدينة السلام كان كلما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعدما ذكر أسماء الله الحسنى :

أسامياً لم تزده معرفة ... وانما لذة ذكرناها

فرجع إلى دار السلام .

فلا عجب إذاً لرجل ملأ ذكره الأسماع وشغل الدنيا كما يقول ابن رشيق أن يزداد كبراً وتعاظماً ويقول لسيف الدولة :

أنلني إذا أنشدت شعراً فانما ... بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني ... أنا الصائح المحكي والآخر الصدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وأن يترفع بعد هـذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم يجب دعوة الصاحب ابن عبّاد مع ما بذله هـذا من الجهود لاستقدامه اليه . فيقول أبو الطيب فيه : « أن غلياً معطاء بالري ، يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » علم أنه معطاء يسني الجوائز ، فلم يستمله ذلك اليه لأنه استغنى ، فلم يفعـل ما كان يفعله أيام بؤسه لغلبة عزة النفس والكبرياء عليه .

وقد أثار إعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذه غرضاً برشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته وهو أعرف الناس بحسناته وأكثرهم حفظاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته(١) وأعرض عن الوزير المهلبي وزير الدولة البويهية في بغداد حتى أغرى هذا به حساده من شعراء العراق كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي والحاتمي وغيرهم ، فنالوا من عرضه وتباروا في هجائه

(١) اليتيمة

وتماجنوا وتنادروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله « فرغت من اجابتهم بقولي في من هم أرفع طبقة في الشعر منهم :

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وحتى ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه وزعيم الحضرة والمقيم بمصالح المملكة في أرجان وهو على أشد ما يكون من الرغبة في لقائه واستقدامه اليه ، أن يعرض عنه كما أعرض عن زميله المهلبي في بغداد، فغري بذمه واتقاده ، حتى إذا جاءه أبو الطيب مراغما المهلبي ، فتح له ابن العميد صدره وأجزل نواله وأحسن وفادته ، ومسل ما كان في نفسه عليه من موجدة .

وأنف أبو الطيب من مدح ابن حنزابة وزير كافور والمقرب منه ، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ، ومن الأدب والعلم بموضع جليل . فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يقبح أثره عنده ، وبما كان ينبه على مغامزة في مديحه له حتى خرج أبو الطيب من مصر خائفاً يترقب واتخذ الليل جملاً وهرب .

روح أبي الطيب في الاباء قوية ؛ ولكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي والاستعلاء وافراطه في هذا الطمع غطى على هذا الاباء في بعض المواقف ، فاستفاد واستذل ، وإلا فما معنى قوله في كافور بعد أن ترك سيف الدولة :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت به انسان عين زمانه وخلت سوداً خلفها ومآقيا

* * *

فأصبح فوق العالمين يرونه وان كان يدنيه التكرم نائيا

ويقول فيه :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وان لم تشأ تملي عليّ فاكتب
فتى كملت الأفعال رأياً وحكمة وبادرة ابان يرضى ويغضب

يقول هذا وكثير مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي أدنه في يد النخاس دامية وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه مالم يقبله من سيف الدولة فيخضع للانشاد بحضرته قائماً وهو يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالاً ، كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بجد ، وما كان كل ذلك الا طمعاً في الولاية ، ولعله طمع في خداع هـذا الأسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في تعلقه اذ يقول له ولم يفتأ يذكر الولاية :

اذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حذائي وابكي من أحب وأندب
أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم واني من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن الا أبو المسك أدهم فانك أحلى في فؤادي وأعذب

وليس هذا ملق كاذب أن يجعل الأسود الذي مشفره نصفه أحلى في فؤاده وأعذب من اهله الذين يحن اليهم هـذا الحنين ويهوى لقاءهم كما ترى .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦